■ المصطفى من الفكر الاسلامي المعاصر؛ السنة الثالثة٢٠٢٣م/١٤٤٤هـ، الرقم ٥، صص ١٩٠-١٦٥
DOI;10.22034/J.MIU.2022.7827
تاريخ الوصول: ١٤٤٣/٨/٨ ■ تاريخ القبول: ١٤٤٣/١٠/١٠

الإعجاز العلميّ الاجتماعيّ للقرآن في تنظيم المجتمع في كيان الأسرة

السيد حميد جزائري،[١] ومحمد ياسين بصيرت[٢]

خلاصة البحث

الإعجاز العلميّ الاجتماعيّ للقرآن أحد أبعاد الإعجاز العلميّ للقرآن، وتنظيم المجتمع هو أحد القضايا الاجتماعيّة المرتبطة بمؤسسة الأسرة، ومؤسّسة الأسرة هي منطلق الحياة في المجتمع، وسيادة القانون في الحياة الاجتماعيّة بما في ذلك مؤسسة الأسرة لهي من الحاجات الأساسيّة للمجتمع، إنّ القرآن الكريم - كمصدر خال من الخطأ - هو أهمّ مصدر للتشريع في المجتمع الإسلاميّ وله دورٌ مهمٌّ في تنظيم المجتمع، وفي القرآن الكريم آيات في سياقات اجتماعيّة مرتبطة بتنظيم مؤسسة الأسرة.

وفي هذا الصدد، تمّ شرح الإعجاز العلميّ الاجتماعيّ للقرآن في المجتمع الكامن في مؤسسة الأسرة، وعليه بات أسلوب البحث في المقال نوعيًّا وتوثيقيًّا ووصفيًّا وتحليليًّا ومقارنًا؛ حيث تمّ شرح التنظيم الاجتماعيّ، ودُرست النماذج الاجتماعيّة لآيات القرآن، واستُخرج تنظيم الأسرة من آيات القرآن بثلاث طرق: إحداهما الآيات المتعلّقة مباشرة بالأسرة، (الزواج، العلاقات من المحرم وغير المحرم...). والأخرى

١ . قسم القرآن والعلوم، مجمع التعليم العالي للقرآن والحديث، جامعة المصطفىﷺ العالمية، قم، ايران. البريد الإلكتروني: s.hjazayeri@miu.ac.ir .

٢. قسم القرآن والعلوم الاجتماعية، جامعة المصطفىﷺ العالمية، قم، ايران. البريد الإلكتروني:m_iasinbasirat@gmail.com

الآيات التي تتحدث عن المجتمع الخاصّ والمتعلّقة بالأسرة؛ لتكون عبرةً للناس، كالآيات الواردة في قوم لوط، والتي دُمّرت بسبب عدم الالتزام بقوانين الأسرة. والثالثة الآيات التي يمكن من خلالها اكتشاف سيادة القانون في الأسرة على سبيل الجري والتطبيق (شرائط الصدق)، كالآيات التي تنصّ على فلاح المؤمنين بشرط العفّة، وكانت النتيجة أنّ تنظيم مؤسسة الأسرة في آيات القرآن الكريم هو من مصاديق الإعجاز العلميّ الاجتماعيّ للقرآن، مع توضيح أنّ الطريقة التي تتحدّث بها الآيات عن الأسرة في عصر النزول ولم يكن لتقنين الأسرة في المجتمع الجاهليّ سابقة؛ فإنّ فكرة تنظيم الأسرة والتي وردت في القرآن هي وظائف الأسرة نفسها، التي قد ثبتت في علم الاجتماع؛ فإنّ طرح موضوع تنظيم الأسرة خلال الآيات القرآنية هو من الإعجاز العلميّ والاجتماعيّ للقرآن.

المفردات الرئيسة: الإعجاز، الإعجاز العلميّ، الاجتماعيّ، القرآن، التنظيم، سيادة القانون والمجتمع.

مقدّمة

إنّ تعبير القرآن في الإعجاز العلميّ لا يقتصر على علم معيّن، وإنّ وجوه الإعجاز العلميّ عامّة متنوعة؛ إذ تشير العديد من الآيات في كلّ قسم من القرآن إلى جانب من جوانب هذا الإعجاز، من قبيل الإعجاز الأدبيّ والطبيّ والفلكيّ وغيرها، ومن الإعجاز العلميّ في القرآن هي العلوم الاجتماعيّة، ومن موضوعات العلوم الاجتماعيّة تنظيم المجتمع من خلال وضع القوانين، ومن البدهيّ أنّ السلوك الاجتماعيّ للبشر تحكمه القواعد الاجتماعيّة، وما دام تحظى هذه القوانين بدعمٍ حقيقيٍّ، فإنّها ستضمن الازدهار الاجتماعيّ.

إنّ القرآن الكريم هو مصدر رئيس من المصادر الدينيّة الأصيلة التي يمكن من خلالها فحص القوانين الاجتماعيّة، ومن أحد أبعاد تنظيم المجتمع هو سيادة القانون في مؤسسة الأسرة؛ إذ إنّ سيادة القانون في المجتمع هي من القضايا الرئيسة والأساسيّة في تحقيق الظواهر الاجتماعيّة، والتي تلعب دورًا حيويًّا في جميع مراحل البحث في الظواهر الاجتماعيّة، بل وإنّ اختيار أسلوب البحث يعتمد كلّيًّا على حلّ مثل هذه القضايا، فمؤسّسة الأسرة في خطرٍ عظيمٍ في الوضع الحالي؛ لوجود مشروع الحرّية الجنسيّة، وظهور العلاقات الجنسيّة في المجتمع الغربي بعنوان زملاء السكن دون علاقة زوجية؛ فإنّ معالجة هذه الأمور مرتبطة بقضيّة اجتماعيّة، فيحاول المقال شرح كيفيّة التعبير عن تنظيم مؤسسة الأسرة في القرآن؛ إذ لم يكن هناك في المجتمع العربيّ الجاهليّ مؤسسة أسريّة ملتزمة بالقانون في عصر النزول، بل الآيات القرآنيّة تدلّ على أنّ تنظيم مؤسسة الأسرة لم يتحقّق إلّا في ظلّ أحكام القرآن، منها: التقنين في أساس تكوين نظام الأسرة من خلال تشريع الزواج بين الرجل والمرأة، الذي يُعتبر من آيات الله، ووضع قوانين لتعريف العلاقة بين المحرم وغير المحرم وتقديم الأسر المثاليّة كقدوة، هي نماذج من الإعجاز العلميّ الاجتماعيّ للقرآن في تنظيم مؤسّسة الأسرة.

الأوّل: المفاهيم

١) مفهوم الإعجاز

الإعجاز من مادّة (عجز)، في الأصل ضدّ (الحزم)، (وهو ربط الحبل بإحكام)،[١] وهو بمعنى الضعف والعجز،[٢] والمعجزة اصطلاحًا الأمر الخارق للعادة، المقرون بالتحدّي، الذي تتعذّر معارضته،[٣] وللمزيد من الإيضاح، أضاف آخرون إلى هذا التعريف بعض القيود، كما يجب أن يكون بدعوى النبوّة ويعجز عنه غيره، شاهدًا على صدق دعواه.[٤]

٢) مفهوم الإعجاز العلميّ للقرآن

أوّلًا: أن تقوم بالكشف عن بعض الحقائق العلميّة التي لم يكن يعرفها أحد قبل نزول الآية، ولا تكتشف حقيقتها إلّا بعد نزول الآية بفترةٍ طويلةٍ، ولا يكون اكتسابها ممكنًا بالوسائل العاديّة التي استخدمته الناس في زمن نزول الآية.

ثانيًا: أن تكون أنباء غيبيّة عن وقوع أحداث طبيعيّة وأحداث تاريخيّة لم يكن يُعلم بها وقت نزول الآية، بل حدثت بعد إخبار القرآن بذلك، وتكون بحيث لا يمكن توقّعها بطريقة طبيعيّة.[٥]

للإعجاز العلميّ في القرآن أبعاد مختلفة، يرتبط جزء منها بالأنطولوجيا القرآنيّة. وفي هذا الصدد، يمرّ القرآن مرور الكرام على بعض أسرار الطبيعة التي تنكشف بمرور الزمن وبتقدّم العلم، ويستفاد من أقوال بعض المفسّرين أنّ جميع أبعاد القرآن هي معجزة، لكنّها تختلف باختلاف المخاطب، بمعنى أنّ أبعاد إعجاز القرآن الأدبي، فهي

١ . ابن منظور، لسان العرب، ٤٠٥: ٣٦٩/٥.
٢ . الفراهيدي، العين، ١٤٠٦: ٢١٥/١.
٣ . السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ١٤١٦: ٢/ ٣١١.
٤ . معرفة، التمهيد في علوم القرآن، ١٤٢٨: ٤٣/٤؛ الخوئي، البيان في تفسير القرآن، ١٣٩٥: ٣٥.
٥ . رضائي أصفهاني، پژوهشي در اعجاز علمى قرآن، ١٣٨١: ٨٥.

تخاطب خبراء الأدب، وما يسمّى بالقضايا الاجتماعيّة تخاطب باحثي العلوم الاجتماعيّة، والمباحث النفسيّة خطاب إلى علماء النفس، والحكمة والفلسفة مخاطبها الفلاسفة والمتكلمون.[١]

ويرى الشهيد المطهري أنّه يمكن النظر في معجزات القرآن من جانبين أصليين: أحدهما هو الجانب البلاغي للقرآن الذي يشير إلى وضوح التعبير، وحلاوة البيان، وجماله وجاذبيّته، ويرتبط باللفظ، ولا يراد به انفصال اللفظ عن المعنى، وإنّما اللفظ هو محتوى المعنى. وجانبها الآخر هو ما يتعلّق بمحتوى القرآن وهو الجانب الفكريّ والعلميّ للقرآن.[٢]

٣) مفهوم الإعجاز الاجتماعيّ للقرآن

يجب تعريف الإعجاز الاجتماعيّ للقرآن من الناحية المفاهيميّة في البنية القرآنيّة، والتي تتضمّن موضوعات ومبادئ تشير بشكل أساس إلى الحياة الاجتماعيّة للإنسان، في الماضي والحاضر والمستقبل؛[٣] فإنّ الإعجاز الاجتماعيّ للقرآن يعني أنّ القرآن قد طرح آراء في المجالات الاجتماعيّة لم يكن لها نظير قبل نزول القرآن، ولم يكن الحصول إليها ممكنًا بعلوم وتقنيات ذلك العصر، بل تحقّقت بعد فترة طويلة من نزول القرآن، أمّا الإعجاز العلميّ الاجتماعيّ للقرآن في تنظيم المجتمع الكامن في مؤسسة الأسرة هو يعني أنّ بناء آيات القرآن التي تشير إلى الحياة الاجتماعيّة في الأسرة يعبّر عن قوانين حول مؤسّسة الأسرة في المجتمع، وقد أنبأ القرآن عن سيادة القانون في الأسرة.[٤]

ومن وجهة نظر القرآن، فإنّ تنظيم مؤسسة الأسرة هو من خلال إيجاد السكون

١. الطباطبائي، الميزان، ١٣٧٤: ٥٧/١؛ معرفة، التمهيد، ١٤٢٨: ١٣٤/٢٣.
٢. المطهري، المجتمع والتاريخ في القرآن، ١٣٧٨: ٥٤٧.
٣. آقايي، اعجاز اجتماعي قرآن با تأكيد بر قوانين جامعه شناسي، قرآن وعلم، ١٣٩٠: الرقم ٨.
٤. النساء: ١.

وإيداع الرحمة والمودّة في القلوب.[١] إنّ هذا التنظيم في الأسرة يستمر في ظرف الحال والمستقبل، وقد تمّ إثباته في العلوم التجريبيّة تحت عنوان وظائف الأسرة في علم الاجتماع؛ فإنّ الكشف عن العلاقة بين هذه الوظائف وبيان الآيات القرآنيّة في تنظيم الأسرة يثبت الإعجاز العلميّ الاجتماعيّ للقرآن في التزام المجتمع المرتبط بمؤسسة الأسرة بالقانون.

٤) يستخدم «القانون» في معنيين اصطلاحًا

أحدهما في المسائل الاعتباريّة والوضعيّة والتعاقديّة. والآخر في الأمور الحقيقيّة ونفس الأمريّة والواقعيّة. والقانون في معناه الاعتباريّ والتشريعيّ، هو مفاد جملة دالّة على الأمر والنهي دلالة منطقيّة أو التزاميّة.

«يجب على كلّ سائق أن يقود سيارته من الجانب الأيمن» هو من المقرّرات الوضعيّة التي تدلّ على الأمر والوجوب، والقانون بمعناه الحقيقيّ أو التكوينيّ أو نفس الأمري يحكي عن علاقة حقيقيّة بعيدة عن الوضع والاعتبار.

«اثنان زائد اثنان يصبح أربعة»، أو «الماء يغلي بسبب الحرارة»، أو «أنّ الماء يتكوّن من مزيج من الأكسجين والهيدروجين» هي مجموعة من القوانين الحقيقيّة التي لا تتحدّث عن العلاقات الاعتباريّة،[٢] ووفقًا للشهيد محمد باقر الصدر، هناك علاقة عميقة بين هداية الإنسان وتشريع المجتمع في القرآن. وهذا التفسير يشير إلى وجود ارتباط وثيق بين مشهد التاريخ والقوانين والسنن التاريخية مع رسالة القرآن الكريم.[٣]

والمراد بالقانون هو مزيج من القانون التشريعي والقانون في معناه الحقيقيّ أو نفس الأمريّ. إنّ تقنين مؤسّسة الأسرة هو (مزيج من) قانون تشريعيّ (يتناول الأوامر

١ . الروم: ٢١.

٢. مصباح اليزدي، جامعه وتاريخ از ديدگاه قرآن، ١٣٨٠: ١١٤.

٣. الصدر المدرسة القرانية، المدرسة القرآنية، ١٤٠٩: ٧٥-٨٠.

والنواهي) وقانون حقيقيّ (يتناول الآثار والنتائج)، وهو يشمل أنواع التقنين المرتبطة بالأسرة في المجتمع، ولها جانب إلهيّ، وقد تكون قد اكتشفتها العلوم التجريبيّة أو يمكن اكتشافها فيما بعد، والأصل هو التزام الأسرة بالقانون.

٥) مفهوم المؤسسة ومؤسسة الأسرة

ظهرت المؤسسات الاجتماعيّة لتنظيم المجتمع وتلبية احتياجاته الأساسيّة. وقد ورد في تعريف المؤسسة ما يلي:

> **نظام متكوّن من الأنماط الاجتماعيّة التي توجب بعض السلوكيات المقبولة والموحدة لتلبية الحاجات الأساسيّة للمجتمع.**[١]

مؤسسة الأسرة هي إحدى المؤسسات الاجتماعية التي تم إنشاؤها لتنظيم سلوكيات معيّنة لأفراد المجتمع. وقد تمّ تعريف مؤسسة الأسرة في علم اجتماع كالتالي:

> **الأسرة هي مجموعة من الأقارب تتحمل المسؤوليّة الرئيسيّة في التنمية الاجتماعيّة للأطفال وتلبية بعض الحاجات الأخرى للمجتمع. تتكوّن الأسرة من مجموعة من الأشخاص المرتبطين بعضهم ببعض من خلال علاقة الدم أو الزواج أو التبني ويعيشون معًا لفترة زمنية غير محددة.**[٢]

الثاني: إعجاز القرآن ومشاركة المجتمعات في التنظيم الاجتماعيّ

إنّ أحد المحاور الاجتماعيّة هو الالتزام بالقانون في مؤسسة الأسرة، لقد اهتمّ القرآن بماضي الأسرة تاريخيًّا، وفي الوقت نفسه ذكّر بشرعيته؛ لأنّ مصير البشر مرتبط بعضه ببعض، ويرتبط تاريخ البشر بحاضرهم ومستقبلهم.

ووفق تحليل الشهيد المطهري:

> **إنّ الإنسان كنوع (من أنواع المخلوقات)، كائن اجتماعيّ بحكم فطرته وطبيعته، فكونه**

١. الصدر المدرسة القرانية، المدرسة القرآنية، ١٤٠٩: ٧٥-٨٠.
٢. المصدر نفسه: ١٢٧.

اجتماعيًّا وذا روح جماعيّة، فهذا ينبع من خصائصه الذاتيّة والفطريّة، ومن أجل الوصول إلى الكمال الذي تستحقّ مواهبه، فإنّ للجنس البشري نزعة اجتماعيّة، وأمّا استعداده للروح الجماعيّة، فهي أيضًا وسيلة لنيله الكمال الغائي، وبالتالي فإنّ المجتمعات البشريّة أيضًا لها طبيعة وماهيّة واحدة.[١]

إنّ مدى تأكيد القرآن الكريم على سيادة القانون في تاريخ المجتمعات وتحديد مصير الأمم،[٢] وتمثيلاتها العديدة حول كيان الأسرة، وبيان القصص العديدة وتكرارها أحيانًا والتصريح بضرورة الاعتبار بهذه القصص،[٣] ينم عن إعجازه في بيان الحقائق العلميّة الاجتماعيّة في تنظيم الأسرة، فمن ناحية كون الأمم لها مصير مشترك، ومن ناحية أخرى وجود العديد من القواسم المشتركة بين المجتمعات، ممّا يؤدّي ذلك إلى الاعتقاد بوجود اشتراكها في حكم القانون والآثار المترتبة عليه.

الثالث: آثار الإعجاز العلميّ الاجتماعيّ لتنظيم مؤسسة الأسرة في المجتمع

هناك آثار ونتائج لسيادة القانون في مؤسسة الأسرة في المجتمع؛ لأنّ المجتمع عبارة عن مزيج من الأشخاص المرتبطين بعضهم ببعض، والأسرة هي المؤسسة الاجتماعية الأولى التي تؤثّر على جميع المؤسسات الاجتماعيّة الأخرى، وللإعجاز العلميّ والاجتماعيّ لتقنين مؤسسة الأسرة في القرآن آثار في المجتمع، نذكر بعضها أدناه.

١) المعرفة الصحيحة بتاريخ الأسرة في المجتمع

معرفة تاريخ الأسرة بشكلٍ صحيحٍ، والاهتمام بشرعيتها، والاعتبار بمصير الأسرة في المجتمع، مثل ما جاء في القرآن عن تشريع الأسرة تحت عنوان السنن الإلهيّة؛ حيث قال تعالى: ﴿**يُرِيدُ اللهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ**

١. المطهري، جامعه وتاريخ در قرآن، ١٣٧٨: ٥٣.
٢. الأحزاب: ٦٢؛ الفتح: ٢٣؛ آل عمران: ١٣٧؛ فاطر: ٤٣.
٣. الروم: ٤١؛ آل عمران: ١٣؛ يوسف: ١١١.

﴿وَاللّٰهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾،[١] وقصة يوسف مع زليخا،[٢] وولادة عيسى بن مريم،[٣] فلو لم يذكرها القرآن في مؤسسة الأسرة، لم تكن تُحدَّد حقيقتها الشرعيّة، وكما أنّ القدرة على التنبّؤ بالأحداث المستقبليّة ترتبط بجريان حكم القانون في المجتمع، وكذلك تُهيّئ أرضيّة لاكتشاف القوانين من خلال إثبات سيادة القانون في مؤسسة الأسرة في المجتمع، وإذا قمنا بالتحرّي عن الأمم السالفة من خلال هذه القوانين الاجتماعيّة، كان لدينا بالتأكيد تحليل أدقّ ممّا هو موجود في كتب التاريخ، كما يمكننا من خلال تلكم القوانين تصحيح بعض الروايات التاريخيّة.

٢) إمكانيّة التنبؤ بمستقبل مؤسّسة الأسرة في العلاقات الاجتماعيّة

ومن خلال إثبات إعجاز القرآن في التعبير عن شرعيّة الكيان الأسريّ، يمكن التنبؤ بحدوث الظواهر الاجتماعيّة المتعلّقة بالأسرة، ذلك عن طريق فحص الشرعية المشار إليها ومعرفة طبيعة العلاقات وتطبيق قوانينها العامّة على المجتمعات الحاليّة وللتنبؤ بمصير الأمم، كمآل قوم لوط حيث انتهى الأمر بهم إلى الهلاك لانحرافهم عن قانون الزواج وترويجهم للعلاقة المثليّة،[٤] يمكن التنبؤ بأنّ كلّ مجتمع يعترف بالزواج المثلي والشذوذ الجنسي، فمصيره هو مصيرهم نفسه، أو في مجتمع يعترف بالعلاقات الجنسيّة بغير زواج يمكن التنبؤ بأنّ الصحّة الاجتماعيّة من حيث السكون وعلاقات الناس (بين الذكر والأنثى) سوف تصاب بالخلل بشكل خطير.

١. النساء: ٢٦.
٢. يوسف: ٧ و ٢٤.
٣. آل عمران: ٣٥ و ٤٤-٤٥.
٤. الشعراء: ١٦٠ - ١٧٤.

٣) التخطيط لتحسين الوضع الفعلي للأسرة في المجتمع

إنّ معرفة التزام مؤسّسة الأسرة بالقانون يمكّن خبراء النظام الاجتماعيّ من تحديد الأضرار والانحرافات الاجتماعيّة التي تهدّدها وكذلك العوامل المسبّبة لها، والعمل في اتّجاه إيجاد حلٍّ وتصحيحٍ للوضع القائم، مثل توعية الناس بأنّ مصدر السكن والاطمئنان هو التمسّك بالأسرة وزيادة الحبّ بين الزوجين وعائلاتهما من خلال عناوين (المودة) و(الرحمة)،[١] فعلى خبراء العلوم الاجتماعيّة أن يخطّطوا لحركة المجتمع نحو الوضع المطلوب وفق مضمون آيات القرآن وبما يتماشى مع السعادة الحقيقيّة للمجتمع عبر معرفة آليّة التحوّل من الوضع القائم إلى الوضع المثاليّ، هذه من ناحية، ومن ناحية أُخرى فإنّ غرس القيم الإيجابيّة - من خلال معرفة العوامل التي تخلق القيم وتؤسسها، وفي ضوء هذه الخطط - يمكنهم تعزيز مناعة المجتمع ضدّ الأضرار الاجتماعيّة وتحصين الأمّة ضدّ غزو الثقافات الأجنبيّة.

الرابع: شرح طريقة فحص شرعيّة مؤسسة الأسرة في القرآن

الطريقة الأولى: هي تفحّص الآيات التي تتحدّث بشكلٍ مباشر عن شرعيّة الأسرة والتزامها بالقانون، وهي ما يتعلّق بسنّة الزواج، وأمّا الزواج فيالمجتمع، فهو رمز من سيادة القانون في المجتمع من خلال تكوين أسرة متكّونة من رجل وامرأة؛ يقول القرآن الكريم: ﴿**وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**﴾،[٢] ويقول أيضًا: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا**﴾،[٣] ويقول المولى

١. الروم: ٢١.

٢. الروم: ٢١.

٣ . النساء: ١.

في آية أخرى: ﴿**هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ**﴾.[١]

إنّ تفسير الإعجاز العلميّ والاجتماعيّ لهذه الآيات في شرعيّة الأسرة هو أنّه مع نزول الآيات القرآنيّة عن الأسرة، تمتّعت المرأة بالكرامة في الأسرة وأنتجت عن فكرة تنظيم الأسرة؛ إذ كانت المرأة في المجتمع الجاهلي قبل نزول هذه الآيات، تعتبر كائنًا وضيعًا ولم تكن هناك أسرة شرعيّة، لكن حسب الآيات القرآنيّة، فإنّ المرأة في مؤسسة الأسرة القرآنيّة هي من جنس الإنسان؛ إذ خُلقت مع الرجل من نفس واحدة، وهي من خلال تشريع الزواج، الذي يُعتبر من آيات الله، تبعث السكون على الحياة الزوجيّة، كما تتعزز بها العلاقة في قلوب الزوجين.

إنّ بيان الإعجاز العلميّ الاجتماعيّ للآيات القرآنيّة في توضيح تقنين الأسرة هو بحيث إنّ الأسرة لم تكن تسوده القانون في المجتمع الجاهليّ، ولم يكن يمارسه الناس ما قبل عصر النزول، ولم يكن يعترفوا بالزواج كآية من آيات الله، بل كانت حالة المرأة في المجتمع البشريّ ما قبل النزول وحتّى في عصر النزول مختلطة بأوهام وخرافات، وقد ورد في آيات القرآن نماذج من شذوذ القانون في الأسرة العربيّة الجاهلة، كالجمع بين الأختين في الزواج بقولة: ﴿**حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ... وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ**﴾،[٢] والاستياء من ولادة بنت بقوله: ﴿**وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ* يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ**﴾،[٣] كما ورد في التاريخ أيضًا

١. الأعراف: ١٨٩.

٢. النساء: ٢٣.

٣. النحل: ٥٨ – ٥٩.

الاختلال الذي كان يعتري شرعية الأسرة في المجتمع الجاهلي؛ حيث كانت شخصيّة المرأة تذمّ بشدّة وتعتبر كائنًا وضيعًا، ويكفي في إذلال المرأة أن كانت مصدر خزي وعار.[١]

لم يكن للمرأة دور في زواجها، وكانت النساء في الجاهليّة تحت إمرة أوليائهن، فيتزوجن بقرارهم،[٢] وكان العرب في بعض الحالات، يرثون زوجات آبائهم،[٣] وكانوا يعتبرون المولود من الزنا أبناءهم، ويتزجون على سبيل العشق والمخادنة،[٤] وهذه مجرّد أمثلة على وجود خلل في شرعيّة مؤسسة الأسرة في المجتمع قبل نزول القرآن.

قام العلّامة الطباطبائي بتحليل مكانة المرأة في الأسرة على النحو التالي:

كانت العرب لا ترى للمرأة استقلالًا في الحياة، ولا حرمة ولا شرافة، إلا حرمة البيت وشرافته.[٥]

وقد واجهت المرأة في عصر النزول، مشاكل في مؤسسة الأسرة، كما بيّن العلامة الطباطبائي ضمن المباحث العلميّة لتفسير الميزان مكانة المرأة في المجتمع الإنسانيّ من أدواره المختلفة قبل الإسلام وزمن ظهوره ما يلي باختصار:

أوّلًا: إنّهم كانوا يرونها إنسانًا في أفق الحيوان العجم، أو إنسانًا ضيف الإنسانيّة منحطًا لا يؤمن شرّه وفساده لو أطلق من قيد التبعيّة وتكسب الحرية في حياته.

ثانيًا: إنّهم كانوا يرون في وزنها الاجتماعي أنّها خارجة من هيكل المجتمع المركب غير داخلة فيه، وإنّما هي من شرائطه التي لا غناء عنها كالمسكن لا غناء عن الالتجاء إليه، أو أنّها كالأسير المسترق الذي هي من توابع المجتمع الغالب، ينتفع من عمله ولا يؤمن كيده على اختلاف المسلكين.

ثالثًا: إنّهم كانوا يرون حرمانها في عامة الحقوق التي أمكن انتفاعها إلى انتفاع الرجال المقيمين بأمرها.

ورابعًا: إنّ أساس معاملتهم معها فيما عاملوا هو غلبة القوي على الضعيف. وبعبارة

١. أبو زهرة، تنظيم السلام للمجتمع، ١٩٧٥: ١٣.
٢. علي، المفصل، تاريخ العرب قبل الإسلام، ١٩٧٨: ٦٣٦/٤.
٣. الحوفي، المرأة في الشعر الجاهلي، لا تاريخ: ٢٥٧.
٤. فتاحي زاده، زن در تاريخ وانديشه إسلامي، ١٣٨٦: ٧٧.
٥. الطباطبائي، مباحث علمى در تفسير الميزان، ١٣٩٦: ٥٩٩.

أخرى قريحة الاستخدام، هذا في الأمم غير المتمدنة وغير الحضاريّة، وأمّا الأمم المتمدنة الحضاريّة، فيضاف عندهم إلى ذلك ما كانوا يعتقدون في أمرها: إنّها إنسان ضعيف الخلقة لا تقدر على الاستقلال بأمرها، ولا يؤمن شرها وربما اختلط الأمر اختلافا بالأمم والأجيال.[١]

وقد اتّضحت هويّة المرأة بنزول آيات القرآن، كما اتّضح أنّ المرأة مثل الرجل، وكلاهما إنسان، ولا كرامة لأحدهما على الآخر إلا بالتقوى؛ حيث قال تبارك وتعالى: **﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾**.[٢]

وقد ورد في الآية أنّ أساس تشريع النظام الاجتماعيّ مع الأسرة هو خلق الإنسان من ذكر وأنثى، وتقسيم البشر إلى أمم (قبائل وشعوب) مختلفة، لتعرفهم إلى بعضهم البعض، لكنّ الكرامة وعلوّ المنزلة فليس إلّا بتقوى الله، وهذا من الإعجاز العلمي للقرآن أنّه قد اعتبر كرامة للمرأة ككرامة الرجل، واعتبرهما متساويين في الخلق، ومن الإعجاز العلميّ الاجتماعيّ للقرآن تشريع (الزواج)، فقد ورد في تفسير الميزان، فيما يتعلق بالزواج: «الزواج من السنن الإلهيّة».[٣]

السنن الاجتماعيّة هي بمثابة قانون ومنهج يتمّ به تنظيم المجتمع. يقول العلامة الطباطبائي في تفسير الآية ١٣٧ من آل عمران: «السنن جمع سنة وهي الطريقة المسلوكة في المجتمع».[٤]

الزواج هو أوّل قانون في مؤسسة الأسرة، تكتمل من خلاله مراحل سائر التشريعات، بيان هذا القانون الإلهيّ في النظام الاجتماعيّ هو أن من يخافون من الزواج يشجعهم الله ويسدّ فجوة الفقر المتوهّم أو الحقيقي الذي قد يحدث لهم، ويعدهم بالغنى

١. الطباطبائي، مباحث علمی در تفسير الميزان: ٦٠١-٦٠٢.
٢. الحجرات: ١٣.
٣. الطباطبائي، مباحث علمی در تفسير الميزان: ٦٩٢.
٤. المصدر نفسه: ٣٠/٤.

وعدم العوز، بقوله عزّ من قائل: ﴿**وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ**﴾.[١]

ومن مصاديق تقنين الأسرة هو مسؤوليّة الرجل في نظام الأسرة؛ قال الله تعالى في سورة النّساء: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللهُ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾.[٢]

إنّ المخاطب لهذه الآية هم الرجال، وتحثهم على أن يجتهدوا في تشكيل الأسرة، ويتحملوا المسؤوليّة في تنظيمها؛ فإنّ استمرار الحياة وتوفير المعاش يتبعها الكثير من المشاق والصعوبات، والتي لا يمكن أن تستمرّ بدون أمل وهدوء؛ ولهذا وضعت المسؤوليّة على عاتق الرجال، وفي المقابل خلق النساء ليكنّ مصدر العشق والجمال والسكون، فإنَّ جعل الرجل مسؤولًا في الأسرة وجعل المرأة مشفقة وحنونة بحيث تبعث السكينة والحبّ على الأسرة، هو من الإعجاز العلميّ والاجتماعيّ للقرآن، بتوضيح أنّ عدم وجود خلفيّة وسابقة تاريخيّة لمثل هذا القانون، فلم يكن له نظير قبل نزول الآيات، وبالتالي لم يكن يشعر الرجال بالمسؤوليّة تجاه الأسرة، بل كانوا يعتبرون النساء مخلوقات وضيعة وسافلة.

ومن مصاديق تقنين الأسرة في القرآن، تحريم الزنا والفحشاء،[٣] وكذلك الآيات التي تسنّ قوانين بشأن الحريم الخاص في العلاقة بين أفراد الأسرة، منها: ﴿**قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ* وَقُلْ**

١. النور: ٣٢.
٢. النساء: ٣٤.
٣. الأنعام: ١٥١؛ الإسراء: ٣٢؛ الأعراف: ٢٨ و ٣٢.

لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾،[١] إن هذه الآية مثال بارز على تشريع الأسرة في القرآن، الذي لم يسبق له نظير من قبل نزوله.

ثم إنّ توضيح الإعجاز العلميّ الاجتماعيّ للآيات القرآنيّة المرتبطة بتقنين الأسرة في بعدها الآخر، وهو أنّ اليوم - ومن خلال التجربة العلميّة الاجتماعيّة (علم الاجتماع) - ثبت أنّ وظائف الأسرة تتماشى مع البيان القرآنيّ، وقد تمّ التحليل الاجتماعيّ لوظائف الأسرة المعاصرة كالتالي:

١) التناسل والتكاثر. ٢) التحديد الاجتماعي. ٣) والتنشئة الاجتماعية للأولاد. ٤) مركز المحبة والألفة.[٢]

وقد تمّ تحديد وظائف الأسرة في كتاب "***اسلام وجامعه شناسى***" (الإسلام وعلم الاجتماع) لويليام أغبرم وكلارك تيبيتس كما يلي:

في علم الاجتماع يتمّ التأكيد على ستّ وظائف أساسيّة للأسرة، وهي: التناسل والتكاثر، والدعم والرعاية، والتنشئة الاجتماعيّة، وتنظيم السلوك الجنسي، والمودّة والرفقة، وتثبيت القاعدة الاجتماعيّة.[٣]

وقد ورد ذكر وظائف الأسرة في آيات القرآن الكريم، وللاطّلاع عليها لا بدّ من مراجعة

١. النور: ٣٠-٣١.

٢. تقوي، جامعه شناسي خانواده، ١٣٨٢: ٨٥-٨٦.

٣. بستان نجفي، اسلام وجامعه شناسى خانواده، ١٣٨٥: ٦٧.

محتوى آيات سورة النساء، ففي هذه الآيات يوجد تشريع للتناسل، وتنظيم السلوك الجنسي في صورة قانون النكاح.[١] والتمييز بين ذوات المحارم وغير ذوات المحارم: ﴿**وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا* حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا**﴾،[٢] كما يعتبر القرآن الزواج سنّة من سنن الله، وهذا إشعار على تقنين الزواج من ناحية الشرع: ﴿**يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ**﴾.[٣]

ومن وظائف الأسرة الأخرى هي الحماية والرعاية، والتنشئة الاجتماعيّة، والمودّة والرفقة، وتثبيت القاعدة الاجتماعيّة، مما ثبت في علم الاجتماع، وللمزيد من الإيضاح لهذا الأمر نورد تفسير بعض الآيات الكريمة.

إنّ الزواج هو رمز للالتزام بالقانون في المجتمع ومن مصاديقه ما ورد في الآية ٢١ من سورة الروم؛ على أنّ الزواج وبناء الأسرة هو من آيات الله، ومن وظائفها بعث السكينة والاطمئنان على أفراد هذه المؤسسة، وقد أورد آية الله مكارم الشيرازي في تفسير الآية:

> **والحقّ أنّ وجود الأزواج مع هذه الخصائص للناس التي تعتبر أساس الاطمئنان في الحياة، هو أحد مواهب الله العظيمة. وهذا السكن أو الاطمئنان ينشأ من أن هذين الجنسين يكمل بعضهما بعضًا، وكلّ منهما أساس النشاط والنماء لصاحبه، بحيث يعدّ كلّ منهما ناقصًا بغير صاحبه، فمن الطبيعي أن تكون بين الزوجين مثل هذه الجاذبيّة القويّة.**

١. النساء: ١ و ٣.
٢. النساء: ٢٢-٢٣.
٣. النساء: ٢٦.

ومن هنا يمكن الاستنتاج بأنّ الذين يعرضون عن هذه السنة الإلهيّة وجودهم ناقص؛ لأنّ مرحلة تكامليّة منهم متوقفة».[١]

وهو يردف كلامه استكمالًا لتفسير الآية بقوله:

وعلى كلّ حال، فإنّ هذا الاطمئنان أو السكن يكون من عدّة جهات: جسميًّا وروحيًّا وفرديًّا واجتماعيًّا، ولا يمكن إنكار الأمراض التي تصيب الجسم في حالة عدم الزواج، وكذلك عدم التعادل الروحي والاضطراب النفسي عند غير المتزوجين، ثمّ إنّ الأفراد العزّاب لا يحسّون بالمسؤوليّة من الناحية الاجتماعيّة كثيرًا... ولذلك فإنّ الانتحار تزداد بين أمثال هؤلاء أكثر.. كما تصدر منهم جرائم مهولة أكثر من سواهم أيضًا، وحين يخطو الإنسان من مرحلة العزوبة الى مرحلة الحياة الأسريّة يجد في نفسه شخصيّة جديدة، ويحسّ بالمسؤولية أكثر، وهذا السكن والاطمئنان في ظل الزواج.

وأمّا مسألة (المودّة والرحمة) فهما في الحقيقة (ملاك) البناء في المجتمع الإنسانيّ؛ لأنّ المجتمع يتكوّن من أفراد متفرقين، كما أنّ البناء العظيم يتألّف من عدد من الطوابق و«الآجر» أو الأحجار، فلو أنّ هؤلاء الأفراد المتفرقين اجتمعوا، أو أنّ تلك الأجزاء المتناثرة اتصلت بعضها ببعض، لنشأ منه حينئذ المجتمع أو البناء المطلوب، فالذي خلق الإنسان للحياة الاجتماعيّة جعل في قلبه وروحه هذه الرابطة الضروريّة، والفرق بين (المودّة) و(الرحمة) قد يعود إلى الجهات التالية:

١- المودّة هي الباعثة على الارتباط في بداية الأمر بين الزوجين، ولكن في النهاية، وحين يضعف أحد الزوجين، فلا يكون قادرًا على الخدمة، تأخذ الرحمة مكان المودّة وتحلّ محلّها.

٢- المودّة تكون بين الكبار الذين يمكن تقديم الخدمة لهم، أمّا الأطفال والصبيان الصغار، فإنّهم يتربّون في ظلّ الرحمة.

٣- المودّة، غالبًا ما يكون فيها (تقابل بين الطرفين)، فهي بمثابة الفعل ورد الفعل، غير أنّ الرحمة من جانب واحد لديه إيثار وعطف؛ لأنّه قد لا يحتاج إلى الخدمات المتقابلة أحيانًا، فأساس بقاء المجتمع هو (المودة)، ولكن قد يحتاج إلى الخدمات بلا عوض، فهو الإيثار والرحمة.

وبالطبع، فإنّ الآية تبيّن المودة والرحمة بين الزوجين، ولكن يحتمل أن يكون التعبير (بينكم) إشارة إلى جميع الناس.. والزوجان مصداق بارز من مصاديق هذا التعبير؛ لأنّه ليست الحياة العائليّة وحدها لا تستقيم إلاّ بهذين الأصلين (المودّة والرحمة)، بل جميع

١. مكارم الشيرازي، تفسير نمونه (التفسير الأمثل): ٣٩١/١٦.

المجتمع الإنسانيّ قائم على هذين الأصلين وزوالهما من المجتمع وضعفهما ونقصهما هو سبب آلاف المصائب والمتاعب والاضطرابات الاجتماعيّة.[١]

ويستفاد من تفسير الآية أنّ المسألة الجديرة بالاهتمام هو (السكن والاطمئنان) بين الزوجين في الأسرة، وهذا السكن يرسخ سيادة القانون في الأسرة؛ لأنّ الأسرة هي الركيزة الأولى والأكثر أهمّيّة في بقاء النظام الاجتماعيّ، وأمّا (المودّة) و(الرحمة) فهما كعنصرين ضروريين للأخلاق الإنسانيّة واستمرار الفضائل والكرامات البشريّة، يضمنان بقاء الأسرة، ورعاية الزوجين بعضهما البعض هي في الحقيقة التزام منهما للقانون في الأسرة، فلولا مودة ورحمة في العائلات أو ضعفهما، سيحدث خلل عظيم في النظام الاجتماعيّ.

وقد أورد آية الله جوادي الآملي في تفسير الآيات المتعلقة بالأسرة:

بالنظر إلى الآيات الإلهيّة، إذا قيل إنّ هداية الأفراد وضلالهم مرهونان لهدى الأسرة وضلالها، فلا مبالغة، ومن هنا فإنّ وظائف الأسرة في الإسلام لا تقتصر على توفير الحاجات الاقتصاديّة فحسب، بل تتمثّل مهمّتها الأساسيّة في رعاية الأولاد وتوجيه السلوك الغريزي للمراهقين وتلبية حاجاتهم الثقافيّة والاجتماعيّة، فمن وجهة نظر القرآن يتوقّف استحكام المجتمع على استحكام الأسرة، وأي ضعف وتزلزل في الأسرة يؤدّي إلى تزعزع المجتمع؛ وهذا هو سبب تأكيد القرآن الكريم على تعليم الناس وتربيتهم في الأسرة من أجل تعزيز المجتمع وإنشاء مجتمع صحّي متسام.[٢]

فيمكن تحليل الإعجاز العلميّ الاجتماعيّ للقرآن في التعبير عن شرعيّة مؤسّسة الأسرة وفقًا لتفسير آيات القرآن، أنّ القرآن قد بيّن وظائف الأسرة في علم الاجتماع (من الدعم والرعاية، والتنشئة الاجتماعيّة، والعاطفة والمرافقة، وتثبيت القاعدة الاجتماعيّة في الآيات). وإنّ وظائف مثل الحماية والرعاية، والمودّة والمرافقة، والسكن والاطمئنان، والمودّة والرحمة، بجانب وظائف مثل التنشئة الاجتماعيّة يمكن تفسيرها

١. مكارم الشيرازي، المصدر نفسه: ٦٩٣.
٢. جوادي الآملي، تفسير موضوعي، ١٣٨٨: ٥٠ و٧٥.

من خلال مبحث التعليم والتربية في القرآن، ويراد بتثبيت القاعدة الاجتماعيّة، النظام والقواعد الموجودة في الأسرة التي تحدّد الوضع الاجتماعي للطفل من حيث النسب، وتحدّد الأقارب والعائلة التي ينتمي إليها الشخص،[١] وهي تنسجم مع تشريع الزواج في القرآن وتحديدًا في سورة النساء (الآيات ٣ و٧).

الطريقة الثانية: هي الآيات التي تذكر حالات معيّنة من التقنين في شكل قصص، إنّ وضع القانون حول حالة معيّنة يعني اعتبار أصل التقنين أمرًا مفروغًا عنه، ففي هذا النوع من التحقيق، إذا حصلنا على قوانين محدودة لمجتمع معيّن فقط، تكون النتيجة أنّ الظاهرة الاجتماعيّة المرتبطة بالأسرة هي ملتزمة بالقانون في الجملة، ولكن إذا كان قد ورد في كلّ من الحالات المذكورة قانونٌ خاصّ بحيث كنّا نتمكّن من إلغاء الخصوصيّة المذكورة بتنقيح المناط، فكان من الممكن أن نستنتج تقنين الأسرة في كلّ المجتمعات، وقد أورد آية الله معرفت في شرح التأويل الصحيح:

> **مراعاة النظم والدقة تتمثل في التغاضي عن خصائص الكلام وتجريده من القرائن الخاصّة، حتّى تنكشف حقيقتها في شكل مفهومٍ عامّ، هذا الأمر يشترط في التأويل ما يعبّر عنه بتنقيح المناط في علم الأصول.**[٢]

ويستخدم (تنقيح المناط) في تحليل الآيات المتعلقة بشرعيّة الأسرة، وهذه هي الطريقة التي يسلكه القرآن عندما يذكر مجتمعًا معيّنًا، على سبيل المثال يذكر ظروف الأسرة في (قوم لوط)، ويعبّر عن عناصر الانحرافات الاجتماعيّة التي يتجاهلها قوم لوط بسبب (الشذوذ الاجتماعيّ) و(عدم التزام الأسرة بالقانون)، الأمر الذي أدّى إلى هلاكهم ودمارهم بسبب الانحراف الجنسي ليكونوا عبرة للأجيال القادمة،[٣] بمعنى أنّ القوانين الاجتماعيّة يجب أن تستند إلى كتاب التكوين، وأنّه يمكن

١. كوهن، درآمدي بر جامعه شناسى، ١٣٨٤: ١٨٠.
٢. معرفة، التمهيد في علوم القرآن، ١٣٧٩: ٢٣/١.
٣ . الشعراء: ١٦٠-١٧٤.

التعرّف على القيم المطلقة من خلال هذا النهج النظريّ، وبتعبير الشهيد الصدر:

إنّ الميل إلى الزواج في حدّ ذاته هو من السنن الأصيلة وليس قانونًا اعتباريًّا، لأنّه لا يمكن مجابهته إلّا لفترة قصيرة فقط، كما سنح لقوم لوط الإعراض عن قانون الطبيعة هذا لفترة قصيرة، فلا يجوز انتهاكها في أمدٍ طويل، لأنّ التخلّف عن هذا القانون يؤدّي إلى هلاك الناس؛[١] وفي تفسير "راهنما" فُسرت الآيات المتعلقة بقوم "لوط" على النحو التالي: «كان سبب انتقام الله من قوم لوط بسبب جحود معظمهم بآيات الله، وهذا يدلّ على أنّ إصرار أغلبيّة أفراد المجتمع على الكفر والباطل أمر يمهد لنزول العذاب وشمول الغضب الإلهيّ، إنّ هلاك قوم لوط ونجاته وأهله - باستثناء زوجته - هو نموذج من سنن الله الجارية في نصرة الحقّ وإزهاق الباطل، وقصّة قوم لوط هي عبرة بشرط أن تكون قابلة للتكرار لأمم أخرى، أي إذا كانت سنّة جارية.[٢]

ومن الأسر الخاصّة هي أسرة النبي يوسف عليه السلام، وعلاقته بزليخا، وقصة مريم وعيسى عليهما السلام، وكلّ منها يمثّل التزام الأسرة بسيادة القانون؛ قال الله تبارك وتعالى: ﴿**لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ**﴾.[٣] إنّ عفّة يوسف تجاه زليخا تنمّ عن التزامه بالقانون الإلهي (تجنّب الفحشاء)، ولذلك قد عدّه القرآن في عداد المخلصين: ﴿**وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ**﴾،[٤] ومن الأسر المثاليّة في القرآن هو أسرة مريم عليها السلام، والتي أشار إليها القرآن باسم (آل عمران)، وقد اختار الله آل عمران وآل مريم واصطفاهم على العالمين، كيف لا وهي بنت امرأة قد نذرت ما في بطنها لله حسب الآية الكريمة: ﴿**إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ**﴾؛[٥] لتكون خادمة المعبد (الصومعة) فتقبّلها ربّها بقبول حسن ورزقها رزقًا

١. الصدر، التفسير الموضوعي، سنن التاريخ في القرآن، ١٣٨١: ١٢١-١٢٢.
٢. هاشمي رفسنجاني، تفسير راهنما، ١٣٨٦: ١٣/١٥.
٣. يوسف: ٧.
٤. يوسف: ٢٤.
٥. آل عمران: ٣٥.

حسنا وتكفّل بتربيتها ووعدها بولد مبارك يتكلّم في المهد ويكون نبيًّا: ﴿**إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ**﴾،[١] وكانت مريم سلام الله عليها امرأة مثاليّة في الالتزام بالقانون؛ إذ قال الله تعالى: ﴿**قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا* قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا* قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا**﴾،[٢] ويهدف القرآن -من خلال قصّة مريم وبيان عفّتها في حديثها مع ملك الوحي- إلى تأكيد سيادة القانون في الأسرة.

الطريقة الثالثة: هي الآيات التي تثبت وجوب التزام الأسرة بالقانون من خلال (شرائط الصدق).

ففي هذه المسألة - كما هو الحال في المسائل الأخرى، نظرًا إلى حكمة الله تعالى وبلاغته وفصاحته في الكلام - نكتشف أصل التقنين في الأسرة، وتجدر الإشارة إلى أنّ عبارة (شرائط الصدق) تتضمّن هنا ملحقات الموضوع. وتوضيح ذلك هو أنّ آيات القرآن الكريم أحيانًا تذكر بعض الحالات الخاصّة؛ لأنّها تعتبر أصل التقنين في الأسرة أمرًا مفروغًا عنه، وقد تشير إلى أصل التقنين وتترك تحديد مصاديقه على عهدة البشر، وقد لا تصرّح بأيّ من هذين، فعندئذٍ لا يمكن استخراج حكم في خصوص التزام الأسرة بالقانون إلّا من خلال (شرائط الصدق)، إنّ التحقيق حول التنظيم الاجتماعيّ بالطرق المذكورة يتطلب مجالًا واسعًا نذكر منه في هذا المقال بذكر نموذج منه فحسب، فتعبر هذه الآيات عن تنظيم المجتمع بشكل غير مباشر ومن دون تحديد أي مجتمع خاصّ، بل هي بصدد بيان تنظيم المجتمع بذكر (شرائط الصدق) من خلال بيان المعايير والمصاديق التي يمكن تطبيق هذه القاعدة عليها. على سبيل المثال، سيادة القانون في مجتمع المؤمنين

١. آل عمران: ٣٦-٤٥.
٢. مريم: ١٨ إلى ٢٠.

بقوله تعالى: ﴿**قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ* وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ* وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ* وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ* إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ**﴾،[١] في هذه الآيات تمّ التأكيد على التزام المؤمنين بالقانون في مؤسّسة الأسرة، ذلك بالطريقة الثالثة، بمعنى أنّ شرط فلاح المؤمنين هو تمسّكهم بشرعيّة سلوكهم الجنسي في الزواج، ومن اعتدى على حدود هذا القانون لن يفلحوا أبدًا.

ووفقًا للطريقة الثالثة لتقنين الأسرة، فإنّ القرآن يرشد الناس إلى اتّباع أفضل النماذج والقدوات، فيجب على الأسر أن تولي اهتمامًا خاصًّا لهذه النماذج، والأمثلة لنيل الاطمئنان والسعادة في الحياة كثيرة، ومن أمثلة القرآن على الأسرة النموذجية هي آل بيت النبي إبراهيم عليه السلام؛ حيث أشار الله تعالى إلى اصطفائهم بقوله: ﴿**إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ* ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**﴾،[٢] ومن أهمّ ما وهبه الله إبراهيم أن يكون له ذرية صالحة وجيل صالح مبارك، بقوله تعالى: ﴿**وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ**﴾،[٣] وقد قدّم القرآن الكريم آل بيت النبي (صلوات الله عليهم أجمعين) كأفضل نموذج من الأسرة المثاليّة حيث طهّرهم من كل أنواع الرجس بقوله: ﴿**إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا**﴾.[٤]

والسؤال المطروح هنا هو ما سرّ تفوق آل عمران وآل إبراهيم وآل البيت النبي الأكرم صلى الله عليه وآله [على سائر الأسر]؟ إنّ ما يستفاد من الآيات هو أنّ التزام هذه الأسر

١. المؤمنون: ١ إلى ٧.
٢. آل عمران: ٣٣-٣٤.
٣. الأنبياء: ٧٢.
٤. الأحزاب: ٣٣.

بالقانون كان بأفضل طريقة ممكنة. وقد علّل ذلك القرآن الكريم بذريّة صالحة والطهارة الجسميّة والروحيّة في هذه الأسر، وهذا يدلّ على أن التقنين في النظام الاجتماعيّ للقرآن على غرار تقديم الأسر النموذجيّة التي يجب على العائلات الاحتذاء بها في قبول القانون والالتزام به والبحث عن معيار الشرعيّة في العائلات النموذجيّة التي قدمها القرآن.

نتيجة البحث

يمكن التحقّق من الإعجاز العلميّ الاجتماعيّ في شكل التزام المجتمع بسيادة القانون المتعلّقة بمؤسّسة الأسرة في آيات القرآن، إنّ أسلوب التعبير عن تنظيم المجتمع إنما يتمّ عبر ثلاث طرق: ١- مباشرةً تحت عنوان الآيات المتعلقة بالأسرة. ٢- وإشارةً إلى الأسرة في مجتمع معيّن واستخراج المفاهيم منها وتعميمها على مطلق الأسرة. ٣- واستنتاجًا لتقنين الأسرة من خلال شرائط الصدق، وتطبيق القاعدة وكشف القانون من خلال تاريخ الأمم السابقة والنظر إليها، وكلّ هذه الأمور تتفرّع عن أصل ضرورة التزام المجتمع بالقانون، وإلّا فلن يكون الكشف عن القانون ممكنًا، وإنّ الآيات المذكورة في البحث، نظرًا لإطلاقها تدلّ على اشتراك أصل التقنين في جميع المجتمعات، دون الدلالة على تقنين الظواهر الاجتماعيّة لمجتمع خاصّ وقومٍ معيّنٍ، وعند البحث عن تقنين المجتمع في الآيات المتعلقة بالأسرة، تتمّ ملاحظة القوانين المتعلّقة بالبعد الاجتماعيّ للإنسان على وجه خاصّ.

ويستفاد من دلالة الآيات أنّ المجتمع لديه قوانين، وظواهر اجتماعيّة وتطوّرها تحكمها هذه القوانين، يشير تطبيق القانون الإلهيّ في هذه الآيات إلى أنّه من خلال البحث في موضوع تنظيم المجتمع يمكن معرفة الأسباب والنتائج والمبادئ والقوانين التي تحكم المجتمع، وأخيرًا يمكن استنتاج الآثار الاجتماعيّة لتنظيم المجتمع المرتبط بالأسرة نحو: تشريع الزواج والاعتبار بمصير الأسر في بعض المجتمعات، والاقتداء بالأسر المثاليّة مثل آل بيت النبي (صلوات الله عليهم أجمعين)، واستخدامها في سبيل تنظيم الأسرة السعيدة في المجتمع.

السنة الثالثة ■ العدد الخامس ■ خريف - شتاء ٢٠٢٣م/ ١٤٤٤هـ

مصادر البحث

القرآن الكريم
١. ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب، قم: نشر أدب الحوزة، ١٤٠٥ ق.
٢. أبو زهرة، الإمام محمّد، تنظيم الإسلام للمجتمع، دار الفكر العربي، (د.ن.) ١٩٧٥ م.
٣. آقائي، محمّد رضا، إعجاز اجتماعي قرآن با تأكيد بر قوانين جامعه شناسي، قرآن وعلم، ربيع وصيف، رقم ٨، ١٣٩٠ ش.
٤. بستان (نجفي)، حسين، إسلام وجامعة شناسي خانواده، قم: مركز بحوث الحوزة والجامعة، الطبعة الثانية، ١٣٨٥ ش.
٥. تقوي، نعمت الله، جامعة شناسي خانواده، طهران، جامعة بيام نور، الطبعة السادسة، ١٣٨٢ ش.
٦. جوادي الآملي، عبد الله، تفسير موضوعي قرآن (جامعة در قرآن)، قم: مركز نشر إسراء، الطبعة الثانية، ١٣٨٨ ش.
٧. الحوفي، أحمد محمد، المرأة في الشعر الجاهلي، القاهرة، دار النهضة، (ن. ت.)
٨. الخوئي، أبو القاسم، البيان في تفسير القرآن، بيروت، دار الزهراء، الطبعة الرابعة، ١٣٩٥ ق.
٩. رضائي أصفهاني، محمّد علي، پژوهشى در اعجاز علمى قرآن (دراسة في الإعجاز العلمي للقرآن)، قم، دراسات حول التفسير وعلوم القرآن، ١٣٨١ ش.
١٠. السيوطي، جلال الدين، الإتقان في علوم القرآن، التحقيق: سعيد المندوب، لبنان، دار الفكر، ١٤١٦ ق.
١١. الصدر، محمدباقر، المدرسة القرآنية، قم، المؤتمر العالمي للإمام الشهيد الصدر، ١٤٠٩ ق.
١٢. الصدر، محمدباقر، تفسير موضوعى سنّت هاى تاريخ در قرآن (التفسير الموضوعي لسنن التاريخ في القرآن)، طهران، منشورات تفاهم، الطبعة الثالثة، ١٣٨١ ش.
١٣. الطباطبائي، محمد حسين، ترجمة تفسير الميزان، المترجم: محمّد باقر موسوي، قم: جامعة المدرّسين للحوزة العلمية بقم، مكتب الانتشارات الإسلامية، الطبعة الخامسة، ١٣٧٤ ش.
١٤. الطباطبائي، محمدحسين، مباحث علمي در تفسير الميزان، قم، مكتب الانتشارات الإسلاميّة، الطبعة الثالثة، ١٣٩٦ ش.
١٥. علي، جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، بيروت، دار العلم للملايين، الطبعة الثانية، ١٩٧٧ م.
١٦. فتاحي زاده، فتحية، زن در تاريخ وانديشه إسلامي، قم: مؤسسة بوستان كتاب (مركز التبليغات

الإسلامي للطباعة والنشر التابع حوزة علمية بقم، ١٣٨٦ ش.
١٧. الفراهيدي، خليل بن أحمد، العين، التحقيق: الدكتور مهدي المخزومي والدكتور إبراهيم السامرّائي، قم: مؤسسة دار الهجرة، الطبعة الثانية، ١٤٠٩ ق.
١٨. كوهن، بروس، درآمدي بر جامعة شناسي، المترجم: محسن ثلاثي، طهران، نشر توتيا، الطبعة الثالثة والعشرون، ١٣٨٣ ش.
١٩. كوهن، بروس، مباني جامعة شناسي، ترجمة: غلام عباس توسلي ورضا فاضل، طهران: مؤسسة دراسة وتأليف كتب العلوم الإنسانية للجامعات (سمت)، الطبعة السادسة عشرة، ١٣٨٤ ش.
٢٠. مصباح اليزدي، محمد تقي، جامعة وتاريخ از ديدگاه قرآن، قم: نشر مؤسّسة الإعلام الإسلامي، الطبعة الخامسة، ١٣٨٠ ش.
٢١. المطهري، مرتضى، جامعة وتاريخ در قرآن، قم: نشر صدرا، الطبعة المكررة، ١٣٧٨ ش.
٢٢. معرفة، محمد هادي، التمهيد في علوم القرآن، قم: مؤسسة التمهيد، ١٤٢٨ ق.
٢٣. مكارم الشيرازي، ناصر، تفسير نمونه (الأمثل)، طهران، دار الكتب الإسلاميّة، الطبعة العاشرة، ١٣٧١ ش.
٢٤. هاشمي الرفسنجاني، أكبر، تفسر راهنما، قم: بوستان كتاب (منشورات مكتب الإعلام الإسلامي التابع لحوزة قم العلمية)، ١٣٨٦ ش.